التجديد في أساليب التعليم

آراء الاستاذ ديوى الاميركي

لناموس التجديد سلطان نافذ الحكم على شؤون الانسان المادية والمعنوية واوضاع الاجتماع . ومع زيادة التنبه لهذه الحقيقة الساطعة في انوار العلم الحديث ومشاهدة آثارها في احداث التاريخ بأم العين ، لا يزال اكثر الناس يتعاصون على الخضوع لاحكام هذا الناموس في ما ورثوهُ من تقاليد والفوهُ من عادات وآراء ، حتى ان الفئة الغالبة القائمة على قيادة الشعوب في طريق التربية والتعليم لا تنفك عالقةً باذيال القديم البالي من خططها وسياجها واساليبها تمضي عليها بالنواجذ ولا تحيد عنها قيد انملة الا بعد ان يذهب في سبيل جمودها وسلفيها ما يذهب من ضحايا العقول والاجساد ، وبعد ان يناصبها النضال من نفوسهم الايام اعلاماً من دعاة الحقائق وقادة التجديد ورسل الاصلاح

هذا فن التربية والتعليم لم يَقُم على تجديد في هذا العصر الا عليان فيه الاول سيدة ايطالية هي المربية (منتسوري) . فانها عكفت بروحها الانسانية الاحسانية ثلاثين عاماً على درس طبيعة الولد العقلية والجسمية من سن الثالثة الى السابعة وبعد ان قامت بنفسها بالتجارب العلمية الشاقة من سيكولوجية وفيسولوجية وانشأت مدارس خاصة تجرب فيها تجاربها بتعليم الاطفال على طرقها المستنبطة ، اخرجت الى عالم التربية من الوجهة العقلية والجسدية مجلداً ضخماً في الايطالية وقد ترجم الى الانكليزية (ثم الى العربية على يد كاتب هذه المقالة) بسطت فيه خلاصة اعمالها وآرائها . وقد عُرفت طريقتها باسمها

والعلَم الآخر هو (ديوي) الاستاذ الفيلسوف الاميركي الشهير في الفلسفة وفن التعليم . فقد استهواهُ فنهُ وعلمهُ الاجتماعي من درس الولد وصلته بحياة الاجتماع فابرز لاعوام قليلة كتاباً اسماهُ « الولد والاجتماع » . وما لبث اهل النور والنجدة والاصلاح في اميركا حتى تناولوهُ بالدرس والتمحيص فاعتمدوهُ في اصلاح طرق التربية والتعليم واصبحت مبادئهُ من المقررات وشهدت لما كان لهُ من حسن الاثر في دوائر التعليم اقطاب العلم المحققون فاحلّوهُ ما استحق من مقام الاجلال والاعظام

وقد قيض لكاتب هذه السطور نقل هذا الكتاب الى العربية في العهد الاخير . ولما اوقف الاستاذ امير افندي بقطر ، على الاصل والمترجَم رأى من حق الامانة لفضل

مؤلفه واستاذه الذي درس عليه العلم في جامعة كولومبيا ان يكتب للمقتطف ترجمة ممتعة له فنشرها المقتطف في جزء يوليو الماضي ورغب الي محرره في تلخيص ما جمع نشره من مبدإ المؤلف الجديد وطرقه المستحدثة فلم يسعني الا الاجابة بكتابة هذه المقالة قبل ان يتسنى نشر الكتاب

بواعث التجديد

افتتح المؤلف كتابه بدواعي التجديد في باب التربية والتعليم بمقتضيات التغير في احوال الاجتماع قال

لقد اعتدنا ان ننظر الى المدرسة من موقف التلميذ الفرد حاصرين علاقته بينه وبين المعلم او بين المعلم ووليه فكان اعظم ما يهمنا من امره تقدمه الشخصي في نموه الجسمي ومبلغ تحصيلاته العقلية وتحسن آدابه ورسوخ ملكاته الاخلاقية دون الالتفات الى موقفه ازاء المجتمع واعداده للقيام بالشؤون الاجتماعية في مستقبل الحياة

على ان نظرنا الى المدرسة ينبغي ان تتسع دائرته و يبعد مداه فان ما يريده الفضل والد لولده يجب ان يكون مراد الامة من اولادها وان تكون غاية امورهم عائدة اليها . والا كانت تلك الاغراض الشخصية ضيقة النطاق مقصرة عن المطلوب في الحياة الاجتماعية فاذا كانت هي مدار العمل وغاية الغايات مات من الامة روح الديمقراطية فذهبت ريحها ونكست اعلامها

ان كل ما تحرزه الامة من اسباب التقدم والفلاح يتصل بابنائها عن طريق المدرسة وافضل ما تتمناه من الاماني ترجو تحقيقه بالمكتشفات الجديدة التي فتحت ابوابها ومهدت سبلها لمستقبلها العتيد . وهنا يلتقي الفرد والمجموع في نقطة واحدة . وحينئذ فليس هناك عامل كالمدرسة في ادراك الاماني الحيوية وتحقيقها على حد ما قيل « في كل شأن يعدل المؤسس المربي الف مصلح »

ولما كانت هذه الحقيقة تقتضي التجدد في مبدإ التهذيب وخططه فمن الضروري ان يكون مجال النظر فيها اوسع والبحث اعمق . والا فمهما يكن من شأن التغييرات في نظام المدرسة وتقاليدها فليس يتعدى الامور الفرعية الخارجية التي لا تمس الجوهر واللباب الاصلاح المطلوب . واذ كانت التطورات في الحالة الاجتماعية تستلزم تغيير خطة التربية والتهذيب في سوق التعليم وبرنامج الدروس ، جاز لنا ان نسمي هذا التغيير « التهذيب الجديد » . وهنا افاض المؤلف في دواعي هذا التغيير ومقتضياته

الاجتماعيه ومن ذلك قوله «بهذا الانقلاب المشار اليه تبدل وجه الارض حتى في اشكالها الطبيعية فزالت الحدود السياسية وامحت من سطحها كأنها لم تكن الاّ خطوطاً على خريطة من الورق ولقاطر السكان الى المدن من جميع الاقطار وبه دخل التغيير على عادات الامم في معايشها على وجه مدهش من السرعة والشمول والاتقان ، وبه نهضت الامم نهوضاً بلغ الغايات بما استخلت من مكنونات الطبيعة ، فعاد استخدامها في شؤون الحياة من الضرورات . وقد تمدى هذا الانقلاب الى ارائنا الادبية من بعض الوجوه على كونها من اقوى الامور على الثبات لرسوخها من فطرتنا الانسانية في الاعماق

«ولما كان هذا الانقلاب على ما وصفنا من عمق الغور واتساع النطاق لم يكن بدٌّ من دخوله الى دائرة التهذيب والتعليم . ذلك ان مناهج مدارسنا وسياق برامجنا في معظم شأنها لا تزال باقيةً من ميراث العهد الذي كان فيه حفظ بعض مداخل العلم غاية الغايات . واما اغراض هذا العهد الحاضر ومطالبهُ فلا تزال رهن القيود في كثير من الاحوال حتى في ما حصل من التغيير في الاساليب الخارجية وتجديد الدروس . فانّا لا نزال نسمع ان ادخال التعليم اليدوي للمدرسة الابتدائية بل الثانوية مع الفنون التأسيسية والعلوم الحيوية مما يؤسف لهُ . ويكاد التهذيب في مدارسنا الى اليوم تسود فيه تصوّرات القرون الوسطى . لانهُ انما يتوخى في معظم شأنه الوجهة العقلية المجرّدة ، دون ان يُقصد فيه الترغيب في العمل واثارة حبّ الابتكار والانتاج سواء أكان في النفع المادي ام في باب الصناعة والفن

«وبينا نرى زعماء تعليمنا ينادون بان الغاية القصوى من التعليم تثقيف العقل وترقية الشخصية وما شاكل نشاهد اكثر من تظلّهم سقوف تلك المدارس وينهلون من مواردها لا يعدّونها الاّ اداةً قليلة الجدوى في ميدان الحياة ومنهج الرزق . فاذا توخينا ان ندخل في برامج التربية والتدريب الاعمال الملائمة لمن تملّك غرائزهم حبُّ العمل فحينئذ نجد اسم المدرسة لديهم اكرم واسمى ومادة الثقافة اغنى واجدى» . ثم قال المؤلف :

«وعلامَ هذا الضاء الشاق في هذا البيان والحقيقة ماثلةٌ للابصار . وهي ان حياتنا الاجتماعية قد داخلتها عوامل التغيير في الاصول والفروع ، فان كان لتعليمنا اقل دخل وصلة بالحياة ، فلا مناصَ من ان تدخل عليه كذلك عوامل التبديل والتحويل . على ان هذا التطوّر ليس من شأنه سرعة الظهور المفاجئ بين ليلة وضحاها ولكنهُ لحسن الطالع آخذٌ في النماء . وان التعديلات في النظام المدرسي على كونها تغييرات خارجية

فرعية هي في الحقيقة دلائل وطلائع تبشر بالانقلاب . فان ادخال الاعمال اليدوية ودرس الطبيعة ومبادئ العلم والفن ، والتاريخ ، وتنزيل الامور الصورية المحضة ذات الشكل الخارجي الى درجة ثانوية في برامج التعليم ، وتبديل الموقف الادبي المدرسي بالنظر الى التلامذة والاساتذة — من حيث التأديب — مع ادخال عوامل تزيد النشاط والاقدام وحسن التدبير — كل هذه الاحوال — لم تحدث من طريق الصدفة والعرض ، وانما كانت نتائج ضرورية لانقلاب اجتماعي بعيد الغور واسع النطاق . ولم يبق الاّ تنظيم هذه العوامل بشكل حيوي ووضع الخطط والاقتراحات — المبسوطة في هذا الكتاب موضع الاجراء وادخالها في النظام المدرسي على قاعدة ثابتة لا تردد فيها ولا تنازل عنها

على ان تحقيق هذه الرغائب لا يتمّ الاّ بان تجعل المدرسة صورة مصغرة للحياة الاجتماعية ملأى نشاطاً ونزوعاً الى ما يمثل اعمال الحياة الكاملة تبثّ في اعضائها روح الفن والتاريخ والعلم . ومتى ربّت المدرسة كل ولد من الامة ونشأته على مبدإ اجتماعي وادخلته في عضوية جميعتها الصغيرة مشرباً روح الخدمة مجهزاً بعدد التدبير الذاتي الفعال — فقل انها احرزت الضمان الاقوى للحصول على هيئة اجتماعية خليقة بالمحبة والاحترام متناسبة الاعضاء متلائمة الاجزاء تسطع فيها من العزّ والفلاح انوار البهاء

اركان هذا التجديد

(١) ان الحياة المدرسية لا يقوم كيانها الحيوي الاّ على اساس اجتماعي على وجه تتمثّل الحياة جميع اجزائه (٢) ان التعليم والتهذيب الذي ترسخ في النفوس مبادئهما هما ما اتيا عن طريق الحياة نفسها . وان ما تتعلمهُ بالاختبار انما هو عدة لدخرها للاستعمال ونورٌ يضيءُ في سبيل الاعمال — وان حالة المدارس الراهنة الآن بعيدة عن هذا السبيل السوي منفصلة عن شؤون الحياة ومطالبها لتعذّر حصول ذلك الاختبار في اوضاعها الشاذة .

(٣) ان المجدد لروح المدرسة تجديداً كلياً حيوياً هو ادخال العمل المادي المتنوع وقد اوضح المؤلف هذه الاركان الثلاثة بما أوتي من عميق التحقيق وسعة الاختبار ورائع بيان وقد قال في ذلك : —

«ان في ذلك العمل الحيوي الذي يجري في المدرسة نجد عناصر الحياة الاجتماعية كما نجد العناصر الكيماوية فتكوّن مادةً واحدةً . وتصبح المدرسة موطناً طبيعياً ومختبراً مفتوحاً لقوى الطالب حيث يتعلم الحياة بطريق الحياة ، لا مكاناً يحفظ فيه دروساً في صور ذهنية خيالية ليس فيها الاّ اشارات بعيدةٌ الى ما عسى ان يكون لهُ مقام في مستقبل الحياة

فتلك المدرسة المنشودة يتأتى لها حينئذٍ ان تكون نسخةً مصغرةً لصورة الامة وجنيناً لشأنها . هذه هي الحقيقة الاساسية والينبوع الاصلي الذي تجري منهُ مناهل التعليم والتهذيب والتدريب الصافية الزلال» . ثم تقدم الى ذكر ما في الاوضاع المدرسية الشائعة من العيب والفساد في تنظيم درجاتها ، ومقاعدها ، ومواد دروسها ، واسلوب تدريسها وما يتصل بذلك مما نشير اليهِ على وجه الايجاز دائراً على الامور الآتية

(١) التقسيم الشائع لانواع المدارس من ادناها الى اعلاها ومبدإ تأسيس كلٍّ منها التاريخي والغرض التهذيبي المقصود منهُ حسب زمانهِ ، وخلوّ الرابط المتسلسل العلميّ الحقيقي لتلك الانواع مع بيان فساد هذا التنظيم . (٢) تعديل النظام المدرسي حتى يضمّ انواع المدارس كلها ويربطها بروح الوحدة الاجتماعية على وجه التسلسل او التنظيم الطبيعي وبيان هذا التعديل برسم يوضح ذلك الارتباط وموقع كل من المدارس وملحقاتها من مكتبةٍ ومختبر ، وهو من مستنبطات المؤلف الرائعة . (٣) النعي على وضع المقاعد المدرسية المعدة لتلامذة المتحدة الى اليوم وبيان ما فيها من الاضرار الجسمية والخلل في اصول التدريس المضرّ مع بيان الاوهام القديمة في حقيقة منزلة الولد من المعلم باسطاً ذلك كلهُ على طراز بديع من التعليل العلميّ المؤيّد بحقائق الاختبار وهو جدير بحسن النظر وصادق الاعتبار . (٤) تقبيح طريقة « الالقاء والتدريس» المألوفة وفساد ما فيها من دواعي الجمود واتلاف مواهب التلاميذ الشخصية وسلب الحرية العقلية وما تؤدي اليهِ هذه الطريقة الجامدة من عقم ناشئتها في التفكير والاستنباط ومواجهة الصعاب

ومن ابدع ما جاء للمؤلف قولهُ في الختام — ان «مركز الجاذبية» في التعليم في نظر السابقين هو خارج التلميذ اي في المعلم ، وكتاب التدريس ، واين شئت وفي اية اردت ما عدا كونهُ في غرائز الولد الكامنة في نفسهِ وفي قواهُ التي هي مصدر حياتهِ وقوامها . وعلى هذا الاعتبار لم يبقَ لحياة الولد نفسها من مجال في كلام ذي شأن وان التغيير القادم على تهذيبنا ليس الاَّ « تحويل مركز تلك الجاذبية » . وهو انقلاب غير بعيد الشبه بالانقلاب الذي جرى على يد كوبرنيكوس العظيم الذي نقل مركز النظام الشمسي من الارض الى الشمس ، فيصبح الولد بهذا التغيير شمساً تدور حولهُ عوامل التهذيب لانهُ المركز الذي اليهِ تنتهي وبهِ تنتظم شكلاً يجري عليهِ نظام الحياة . . وصفوة القول انهُ اذا اجدبت العقول في فساد طريقة التعليم سقطت الهمم وذلّت الامم مثري قندلفت

عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق